الروضة المطهرة والقبر النبوى الشريف

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ (*)

لتبدأ أولاً فى بيان سبب بناء مخزن السر الإلهى هذا ؛ فلقد نزلت الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ (**) فى السنة الرابعة عشر للهجرة النبوية فى حق أهل بيت المصطفى ؛ أى فى حق سيدنا على ، والحسن والحسين وفاطمة الزهراء .

ولما كان هناك احتمال فى المستقبل أن تتوحد كلمة المشركين ، والمنكرين ؛ ويحاولون إصابة جسد النبى الطاهر بأذى ؛ لذلك ؛ فقد قرر أهل بيته الكرام ، وصحابته الميامين ، ضرورة المحافظة علي الجثمان الطاهر ، فبنوا قبةً ، كبيرةً ، تقيه شرور المنكرين الحاقدين . ثم أضاف المأمون بن هارون الرشيد (١) العباسى إليها المبانى . وعندما تولى نور الدين شهيد (٢) الحكم ، يُقال أن الملعون عدو الدين

(*) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

(**) سورة الأحزاب آية ٣٣ .

(١) المأمون بن هارون الرشيد ؛ ١٧٠ - ٢١٨هـ = ٧٨٦ - ٨٣٣م .

هو أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد ، هو السابع بين الخلفاء العباسيين ، والإبن الثانى للخليفة هارون الرشيد ولد سنة ١٧٠هـ = ٧٨٦م . درس العلوم والآداب منذ صغر سنه على أيدى مشاهير علماء عصره . كما كان واقفًا وقوفًا كاملاً على الأدب العربي والفلسفة وسائر العلوم الإسلامية . تولي منصب الخلافة فى بغداد سنة ١٩٨هـ = ٨١٣م، عيّن وهو فى خراسان عليّ بن رضا القاظم ﷺ ولياً للعهد وهو الذى أمر تبديل الملابس الرسمية من اللون الأسود إلى اللون الأخضر ، وكذلك العلم ، كان عادلاً وحكيمًا طوال فترة حكمه . أمر بترجمة الكثير من الكتب عن اليونانية ، واللاتينية ، والفارسية إلى اللغة العربية وكان يمنح المترجم وزن الكتاب الذى يترجمة ذهبًا . أسس المجالس العلمية ، وكان يحضر بنفسه جلساتها العلمية . مرض أثناء توجهه إلى محاربة الروم . وتوفى هنالك . ودفن بالقرب من طرسوس . يُعتبر عصره عصر ازدهار للعلوم والفنون ، وتكاملت فى عصره معالم الحضارة الإسلامية . « المترجم »

(٢) نور الدين شهيد : هو نور الدين زنكى ، ونور الدين محمود زنكى ، الملك العادل أبو القاسم بن عماد الدين زنكى بن اقسنقر ؛ الإبن الثانى لعماد الدين زنكى مؤسس دولة الآتابكة فى نواحى الموصل والجزيرة . ولد سنة ٥١١ هـ / والده سنة ٥٤١ هـ .

فتولى أخوه سيف الدين غرش الموصل ، وقام هو بتخليص حلب من بنى الارقط ، وأسس بها مُلكًا ، وكون دولةً بعد ضم حماة ، وحصب ، وبعلبك ، ودمشق . واستطاع ان يستخلص مدنًا وبلادًا كثيرةً من الصليبيين منها مرعش ، والرقة ، وبانياس . كان نور الدين ملكًا ، شجاعًا ، وعادلاً ، محبًا للعلم ، والعلماء ، والأدب ، والأدباء ؛ صاحب خيرات كثيرة ، مما جعل - حتى - أعداءه يبهرون بعدله ، ومنجزاته . أنشأ الكثير من المدارس والجوامع والمبرات فى كل من حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبعلبك . كما أمر بإنشاء مستشفى كبير فى دمشق ، أوقف عليه ، أوقافًا كثيرةً ، وجلب إليها أشهر أطباء عصره . سار على منواله صلاح الدين الأيوبى فى مصر . توفى نور الدين سنة ٥٦٩ هـ =

المدعو البابا ، قال فى أسبانيا « مهما تكن التضحيات فإننا سنُقدم الغالى ، والنفيس ، وندرب الفدائيين ، والمتطوعين اللازمين ، وليذهبوا إلى المدينة ليعيشون فيها فى عزلة عن الناس ، ولكن بالقرب من قبر محمد وليقوموا بحفر نفق تحت سطح الأرض . ولنسرق جسد محمد ، ولنحضره إلى روما » .

كان البابا الملعون يعرف كثيراً من اللغات . وقد قام فعلاً ؛ بإرسال عشرين فدائيًا من رجاله ، وأتباعه ، أولاد السفاح . كانوا جميعًا ، وكأنهم من الشياطين الحمر ، ذهبوا أولاً إلى مصر ، ومنها ركبوا الحمير ، ووصلوا إلى المدينة مع الحجاج . قدَّم عشرة منهم هداياهم إلى شيخ الحرم (*) وقد تدثروا فى زى العلماء . فقام شيخ الحرم بتخصيص مكان فى الحرم الشريف . أما العشرة الآخرون ، فقد ظلوا خارج المدينة ؛ يشتغلون بزخرفة المبانى وتكليسها وحمل القمامة . استمروا ثلاث سنوات فى حفر الأرض ، وشق نفق تحت أرض المسجد النبوى الشريف ، حاملين التراب ، والأنقاض فى أكياس يبعدونها . وبينما لم يعد بينهم وبين قبرالمصطفى سوى ستة أزرع . هناك ، فى الشام ، يرى نور الدين شهيد النبى عليه الصلاة والسلام فى منامه وهو يخاطبه متفضلاً :

« يا نور الدين . . إن هؤلاء الملاعين يحفرون قبرى ، ويريدون أن يسرقوا جسدى ، لكى يهربونه إلى بلاد الكفر ، إنهض ، وإلحق بهم » ويريه النبى عليه السلام هؤلاء الملاعين ، واحداً ، واحداً . ينهض نور الدين شهيد ، ولم يُضيع الوقت سدى ، بل أعدَّ ستة آلاف رجل ، وقطع المسافة التى تبلغ خمس وعشرين مرحلة ، فى ثلاثة أيام ، وثلاث ليالى ، وكأنه العاصفة . وما أن وصل إلى المدينة المنورة حتى أولم

= بعد أن قضى فى الحكم ثمان وعشرين سنة اتسمت بالعدل وجلائل الأعمال . انظر : « شمس الدين سامى ، قاموس الأعلام جـ٦ ص ٤٦٠٧ » . وهو الذى أمر ببناء « دار العدل » ، وعيَّن فيها محلاً للملك ومحلات لقضاة المذاهب الأربعة ، والمفتى ، لتجرى فيها أحكام الشرع . انظر : تاريخ جودت ، جـ١ بيروت سنة ١٣٠٨ هـ ص ٥١ .

(*) شيخ الحرم : Sayh-ül Harem

مصطلح إدارى كان ، وما زال يُطلق على العالم الذى يتولى أمور الحرم الشريف فى مكة المكرمة ، وكان هذا التعيين يتم من قبل السلطان ويحدد له راتبه ومخصصاته المالية جنبًا إلي جنب مع المهام الوظيفية . وكان يُطلق على العالم الذى يتولى أمور المسجد النبوى ، شيخ الحرم النبوى . ولما كانت الشام تقع على طريق الحج ، فقد أُطلق هذا اللقب فى بعض العصور على والى الشام . انظر : محمد زكى باق آلين ، عثمانلى تاريخ ديملرى وتريملرى سوزتكى . جـ٣ استانبول سنة ١٩٨٣م) « المترجم »

وليمة كبيرة ، ودعى إليها كل مَنْ فى المدينة من الغرباء جنبًا إلي جنب مع الآهلين . وأصر على أن يصافح الحاضرين مُرحبًا ، ولكنه لم ير هؤلاء الأشخاص الذين رآهم فى رؤياه ؛ فسأل مَنْ حوله :

– « أهناك من فقراء المدينة من لم يحضر وليمتى؟ » .

فأجابوه :

– « إن هناك عشر رجال ، مشغولون بالصوم ، والعباده ، منذ ثلاث سنوات ، يعيشون فى حجرة بمدرسة باب الشفاء ، وهم لا يأكلون ولا يشربون ، بل شغلهم الشاغل هو العبادة . . » . فقال نور الدين شهيد : « أسرعوا ، وأحضروا هؤلاء الرجال إلى هنا ، لينالوا صدقاتنا ، وليأكلوا طعامنا » .

وما أن مَثَل أمامه هؤلاء الرجال حتى تعرف عليهم ، فهاجم مقر إقامتهم ، فوجد مئات من الفئوس ، والكواريك ، والمقاطف ، والمعاول . وما أن أمر بإنزال العقاب بهم فوراً حتى انتفض واحد منهم – وقد خُيِّل للبعض أنه على وشك الهلاك – وهجم على نور الدين ، وأطلق آخر النيران من بندقيته .

وتحت وطأة ما ذاقوا من عذاب ، وتنكيل ، اعترفوا بكل شئ ، وتم القبض على الآخرين الذين كانوا يتظاهرون بجمع القمامة على حميرهم . وتم كشف النقاب عن النفق الذى حفروه ، ودخل نور الدين شهيد بنفسه إلى هذا النفق الذى لم يكن قد بقى بين نهايته والقبر النبوى سوى خطوة واحدة . وأُجبر هؤلاء الملاعين على الكلام ، فاعترفوا قائلين : « . . نحن من رهبان أسبانيا . . منذ أن ظهر دين محمد ، ونحن لا يقرلنا قرار ، ولا تطمئن لنا نفس ، ولا يهدأ لنا بال . لقد أخذ العرب ديارنا ، وفتحوا أقدس بقاعنا . . فكرنا كيف ننتقم منهم ؛ وكنا حسب خطة ، وتدبير الراهب ؛ الأب ، سنقوم بتهريب جسد نبيكم محمد إلي روما . وبهذا الشكل كنا سنسترد القدس ، والأندلس ، وأفريقيا ، وسوريا ونتوطن بها نحن ، أما العرب فليعودوا ثانية إلى صحراءهم » .

تابعوا اعترافتهم قائلين :

« لقد وصلنا خطاب من الباب قبل شهر ، وأمرنا أن نستمر فى أعمالنا قائلاً لنا فى خطابه لو استطعتم أن تحضروا جثمان محمد إلى روما ، أو أسبانيا ، فإننا سنجعلها

هى الكعبة ،وسيأتى إليها سنويًا عشرات الألوف من العرب ، والترك ؛ وسنتقاضى من كل قادم مائة قطعة ذهبية . وسأوليكم على التربه » .

هكذا إعترف الملاعين . ثم توجهوا بالرجاء . والتوسل إلى نور الدين شهيد معبرين عن ندمهم ، سائلين إياه . . « – هل إذا أسلمنا تُطلق سراحنا ؟ » ولكن نور الدين لم يتجاوب مع توسلاتهم ، ولم يخدعه ندمهم ، كما لم يقتنع برغبتهم فى الإسلام حيث أنه يعلم أنهم جبلوا على الكفر ، ولُقّنوا الملعنة والخداع . فأمر بقتلهم جميعًا . ومنذ ذلك التاريخ ، لم يعد يُسمح لأى يهودي ، أو نصراني بأن تطأ قدماه النجسة أرض مكة ، والمدينة الطاهرة .

نور الدين شهيد يشرع فى بناء الروضة المطهرة لسيد العالم وفخر الكائنات .. الرسول الكريم :

استقدم نور الدين شهيد أساتذة العمارة ، وأمهر حرفييها ؛ من الشام إلى مكة ؛ والمدينة المنورة ، وجمع من المدينتين المباركتين ، ومن الشام ، وحلب آلاف القناطير من النحاس ، والرصاص ، والحديد ، والقصدير . فى البداية قاموا بهدم القبة التى كانت مشيدة على قبر الرسول الكريم . وتركوا حوله مسافة عشرين ذراعًا . ثم أمد بحفر الخنادق التى كان عمق كل منها عشرين ذراعًا أيضًا ، وعرضها عشرة أذرع . ثم أقام القضبان على جهاته الأربع ، وجعلوها كالشبكة الحديدية ، وأصبح المكان المدفون فيه الجسد الطاهر ، وكأنه صندوق معلق – ثم جعلوا الشبكة الحديدية ، وكأنها حوض ، ثم تم صهر النحاس ، والقصدير ، والرصاص ، وصُبّ فى هذا الحوض ، حتى تحول إلى كتلة واحدة ، من البرونز ، أو النحاس الأصفر . وهكذا أصبحت الجهات الست ، لمقام الرسول الأمين من البرونز . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد أمر بحفر خندق آخر يبدأ من الجدار الذى أقامه الخليفة عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ويصل حتى باب جبريل . ومن هناك حتى داخل الجامع ، وغطى هذا الخندق بقفص، أو شبكة حديدية ، قضبانها فى سمك خصر الإنسان ، حتى أصبح وكأنه سد الإسكندر . كما أقام فوق القبر قبة ذات مقصورة حديدية .

هناك آراء أخرى ، تدعى أن الذين قصدوا التعدى على جثمان النبى الأمين هم الرافضة . ولكن هذا الرأى خطأ تاريخى ، وليس له ما يأكده من الأسانيد ، والبراهين، وأن هذا التدبير من عمل الكفرة الأسبان .

وصف قبة حضرة سيد الكونين:

هذه القبة النورانية ، مقامة على إرتفاع خمسين ذراعًا ، مشيدة فوق تسعة عشر عمودًا ، داخليًا ، وخارجيًا . مغطاة بالرصاص المنقوش ، وبين الكمرات الموجودة على جوانبها الأربع – توجد مقصورة حديدية ، وقد سورت أطرافها بزخارف نباتية ، كالورد ، والسنبل والأرجوان ، والتلب ، وكلها مصنوعة من أسلاك فضية ، وحديدية رقيقة ، وتخيل للناظر ؛ أنها زهور حقيقية ، لا ينقصها إلا روائحها ، ولكن الرائحة التى تفوح ، ويعبق المكان بها ، وهى رائحة الحبيب الأزكى ، وناحية رأس النبى ، وفوق القفص الموجود لوحة فضية مكتوبة بالخط الجلى تقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وجوارها كتبت عبارة « هذا النقش قد أُعد فى زمن السلطان قايتباى » . ومرقد السيدة فاطمة الزهراء ، ومزارها ، رضي الله عنها هوالآخر ، داخل مقصورة ، تقع جنوب المقصورة النبوية .

آداب زيارة الروضة المطهرة:

إن الرسول الكريم ؛ مكى ، مدنى ، قرشى ، اسمه محمد وهو محمود ، ولم يكن إسم محمد معروف بين العرب حتى ذلك التاريخ . كان يلقب بالأمين ، وبعد أن اصطفاه الله بالرسالة ، أصبح المصطفى ، أبوه هو عبد الله ، وجده الثامن والعشرين ، هو اسماعيل عليه السلام ، وجده التاسع والعشرين ، هو سيدنا ابراهيم الخليل وفى الليلة التى شرف فيه العالم بمقدمه (ﷺ) ، قامت قيامة عالم الكفر ؛ تهدم إيوان كسرى ، وأطفئت نار المجوس . أمه هى السيدة أمينة بنت وهب ، أما والدته فى الرضاعة هى السيدة حليمة السعدية عرج إلي السماء فى مكة ، وهاجر إلى المدينة، وهو فى الحادية والخمسين من عمره الميمون . بلغ فريضة الصوم فى السنة الثانيه للهجره ، وتحولت قبلته من القدس إلى الكعبة المشرفة . استمرت الرسالة النبوية ثنتا وعشرين سنة . حضر بذاته الشريفة ثمان وعشرين غزوة ، وخاض بنفسه غمار التاسعة منها . نزل جبريل الأمين بأوامر الله إلي وجه الأرض ثلاثين ألف مرة ، علي الأنبياء السابقين ، وسبع وعشرين ألف مرة على الرسول المصطفى وحده . والله أعلم . عاش عليه السلام ثلاث وستين سنة مباركة .

أما عن آداب الزيارة ، فعليك إذا ما أردت أن تؤديها ، أن تغتسل متطهراً ،

وترتدى الملابس الطاهرة النظيفة . وأن تتمسح بالطيب الزكى الرائحة . وأن تتجه بالقلب ، والروح ، والفؤاد معًا فى التوسل ، والدعاء . كن متأدبًا ، وأنت فى حضرة المصطفى ، فكيف تكون وأنت ماثل بين يدى السلطان ، أوملك دنيوى ، فيجب عليك أن تكون فى وجل ، وخجل ، وتأدب ، يزيد عن ذلك ألف مرة ، لإنه عليه السلام ، لم يمت إنما غيَّر الدنيا فقط – فقد سُمِع صوته الرخيم من قبره المبارك كثيراً .

هكذا ؛ ما أن تطأ قدماك الجامع النبوى الشريف ، من باب السلام . وما أن تتراءِ لك قضبان المقصورة ، عليك عندئذ أن تسير الهوينا من وراء دليلك ، وأنت تُردد بـــــسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٍ ﴾ (*) . ولابد أن تكون فى صحبة مطّوف يقوم لك بدور الدليل . (بيت) .

من لم يترك المحبوب لا يعرف طريق الحانه

ولا يستطيع كل انسان أن يعرف طريف السلطان بلا دليل (١)

ضع يديك على صدرك ، وعند إقترابك من المقصورة ؛ إقرأ هذه الآية ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴿٥٦﴾ ﴾ (**) وانحنى قائلاً : « السلام عليك يارسول الله » ، وتقدم رويداً ، رويداً ، داعياً متوسلاً ، ولا تحبس دموعك الجائشة إن انهمرت . وعندماتصل إلي المقصورة ؛ إقرأ السلام قائلاً :

« السلام عليك يا رسول الله ... السلام عليك يانبى الله .. » استغفر ، ادعو ، توجه بالدعوة ، والتوبة ، والتوسل وأنت تمسح على وجهك بكلتا يديك . ثم عليك أن تخطو خطوتين ، شرق المقصورة ، لكى تُسلم على سيدنا الصديق .

زيارة سيدنا أبى بكر الصديق :

يرقد سيدنا أبو بكر الصديق ، أيضًا ، داخل هذه المقصورة . فعلى الزائر ما أن يصل إلى جواره حتى يُحى قائلاً : « السلام عليك ياسيدى أبا بكر الصديق » وأن يقرأ الفاتحة ، ويرجو الشفاعة ، ويهبها إلى روحه الطاهرة .

(*) سورة الإسراء آية ٨٠ .

(١) [جانيني ترك ايتمه ين حانه اولماز آشينا بى وسيله هركيشى سلطانه اولماز آشينا] .

(**) سورة الاحزاب آية ٥٦ .

كان إسمه الأول ﷺ عبد الكعبة ، ثم سماه الرسول عبد الله ، وكانوا يطلقون عليه ابن أبى قُحافة ، ويتصل نسبه بنسب النبى ﷺ عند كعب . لُقّب بـ « الصِّديق » لأنه أول من صدَّق النبى ﷺ . « بيت »

هو الصِّديق الأكبر فى الصداقة وقد جعله النبى ولىَّ العهد

ولقد أصبح خليفةً لرسول الله ﷺ . توفى ﷺ سنة ١٣ هـ = ٦٣٤م . وفى ليلة وفاته ، صدح صوت من الروضة المطهرة ، ، قبيل الصباح ، وهو يناديه « تعال إلي جوارى » . وقد سمع كل سكان المدينة هذا الصوت . هذا ، وفى الأثر أن عمر ﷺ عنه بينما كان يُنزل الصِّديق ، إلى جوار المصطفى ، بدت له يد الحبيب الشفيع وهى تُشير إلي جواره ، وتشد طرف ثوب الفاروق ﷺ فيفهم أنه سيُدفن هو الآخر فى هذا المكان الطاهر .

على بُعد خطوتين نحو الشرق أيضًا ، يرقد سيدنا عمر الفاروق ، تحت القبة المباركة ، مع الحبيب الشفيع « ﷺ » . وعلى الزائر ، أن يُحى قائلا : « السلام عليك يا عمر الفاروق » ويقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة . وعند طرفى قدمى الرسول المباركتين يوجد « مقام جبريل » .

وهو داخل المقصورة النبوية . ويجب عليك أيها الزائر أن تقرأ الدعاء فى خشوع وتوسل « السلام عليك يا جبريل الأمين » . بعدها يتوجه الزائر ، بالدعاء الذى يتوخاه لنفسه ، ولأهله ، والأقربين فى الدنيا ، والآخرة . وبعد أن يفرغ من دعاءه ، وتوسله ، يتجه نحو الشمال ، بسبع خطوات حيث تكون فاطمة الزهراء ، كريمة ، وحبيبة ، رسول الله . وجسدها الطاهر مسجى تحت القبة النبوية أيضًا ، ولكنها فى مقصورة خاصة بها . يقترب الزائر بخضوع ، وخشوع ، وأدب ، ويُحى قائلاً : « السلام عليك يافاطمة الزهراء ، يابنت رسول الله . . » . ثم يقرأ الفاتحة ، واهبًا ، متشفعًا . ومن عادات أهل المدينة ما أن يولد لأحدهم بنتًا حتى يُحضرونها إلى الحرم النبوى الشريف ويقفون بها ساعة أمام مرقدها الطاهر . وإليها أي إلي السيدة فاطمة الزهراء . يصل نسب كل السادات الكرام .

مناقب سيدنا عمر الفاروق :

تولى الخلافة بعد أبى بكر الصديق سنة ١٣ هـ للهجرة النبوية . وكانت وفاته سنة ٢٣ هـ = ٦٤٣م .

أصبح مقدمًا على العالم أجمع بعدله

ثـم كان نائبـًا .. واليًا علي مكة

والدته ؛ هي جسيمة بنت هاشم ، وأبو جهل هو خال سيدنا عمر ، وكان النبى المصطفى هو الذى لقبه بالفاروق ، لإنه كان يفرق بين الحق والباطل . وقد كانت من عادة النبى الكريم ، أن يلقب صحابته ، بألقاب عرفوا ، واشتهروا بها . وسُمى أصحابه الذين كانوا يقرأون عليه القرآن بالحفظة . وكانت بنات سيدنا عمر ، من الحفظة ، الحافظات ، اللائى حفظن القرآن ، اشتهرن بالذكاء ، وكان سيدنا عثمان عند جمعه القرآن يسمّع لهن ، ويأخذ عنهن ، وقد استُشهد سيدنا عمر ولقى شهادته على يدى أبى لؤلؤة الفارسى المجوسي سنة ٢٣ للهجرة .

وعلى مسافة ثلاث خطوات من كوشة السيدة فاطمة الزهراء يوجد مقام أهل العرفان :

مقـام أهـل العرفـان:

عليك أيها الزائر أن تقرأ الفاتحة بجوار هذا المقام على أرواح أهل العلم والعرفان ثم تُوزع الصدقات سراً ، على الفقراء ، والمحتاجين الجالسين بجواره . وحذارى أن تُظهر تصدقك ، أو أن يراك أحد ، وأنت تُخرج النقود ، من حافظتك ... وإلا ، فإن كل ما معك لن يكفى ، بل ولسوف يمزقون ملابسك ، وهم يتزاحمون حولك ، وربما وصل بهم الأمر إلى إيزاء المتصدق . أو يصرخون ، ويولولون ، وهم فى حضرة رسول الله ﷺ . والواجب ، والأصح ، والاسلم ؛ أن يتصدق الزائر بأي شيء ، وهو فى داخل الحرم .

هناك سبعمائة خادم من الطواشية [1] يعملون في الحرم ومعهم ثلاثمائة مفتاح من

---

(١) الطواشية : طواشى "Tavasi" مصطلح يُستخدم فى السرايات والقصور بدلاً من الخادم . وكانت هذه الطائفة تختار من الذكور الذين يتم خصْيهم ؛ لكى يُحال دون قدرتهم على التناسل .. فالخدمة فى القصور معروفة منذ أقدم العصور ، وقد شاعت بين المصريين ، والبابليين والآشوريين القدماء . ثم راجت عند اليونانيين ، ثم انتقلت الطواشة منهم إلى الرومان والإفرنجة ، ويقال أن أول من قام بهذا العمل هو سميراميس الملكة الآشورية فى الالف الثانى قبل الميلاد .

ويُسجل التاريخ أسماء العديدين منهم الذين اشتهروا إلى الخدمة – بالقيام بأعمال جليلة ، وكانت لهم دراية ، =

الذهب . وعدا هؤلاء ألف خادم آخر للجامع ، فإذا ما شاهدوا المتصدق وهو يُخرج

= بوخبرة كثير من الأمور ، وأن البعض منهم قام بأعمال فدائية وبطولية كبيرة . منهم « مَرْمَس Mermes الرومانى ، وكافور الآخشيدى الذى حكم مصر ، وكان طواشيًا أسودًا ، وأرجوان الذى كان طواشيًا أبيضًا وأدار دفة الحكم لمدة طويلة فى أيام الحاكم بأمر الله . وكان منهم مَنْ تولوا المناصب العليا فى الهند وفارس والصين .. وكانوا من أصحاب النفوذ فى أواخر عهد الدولة الرومانية .

ويسجل التاريخ أيضًا أن بعض الخصيان « الطواشية » قد تولوا المناصب العالية كالصدارة ، والوزارة فى العهد العثماني أمثال على باشا الخادم ، وسليمان باشا الخادم .

وقد تم الاستمرار فى هذه العادة فى العالم الإسلامى لعدة أسباب ؛ كالخوف والغيرة فى الحرم السلطانى ، وعلى الرغم من تحريم ذلك بل تجريم عملية الخصى هذه إلا أن بعض الحكام قد غضوا الطرف عن منعها .. وكان زيد بن معاوية هو أول من استخدم الطواشية فى الإسلام ، فلقد استخدم يزيد طواشيًا يُدعى « فتح » كياورله . ثم تبعه الخلفاء الذين جاءوا بعده فى هذه السنة وهذا مما أدى إلى كثرة استخدامهم فى العالم الإسلامى .

ولما زادت الرغبة فى استخدامهم ، زاد تجار الرقيق من اليهود فى أسعارهم ، وبالغوا فى ذلك . وكان هؤلاء النخاسون اليهود يخصون الذكور من العبيد الذين يجمعونهم من شتى الأقاليم المباح فيها تجارة الرقيق .. ويبيعونهم بهذا الشكل .. وقد لاقت رواجًا كبيرًا على أيدى هؤلاء التجار اليهود .. وأسسوا مجموعة كبيرة من المستشفيات للقيام بهذه المهمة . وكانت اشهرها هى تلك التى تأسست فى مدينة ويردون "Verdun" . وقد اكتسبت شهرتها خلال سنوات الحرب الفرنسية – الألمانية . ولقد نشط تجار الرقيق خلال هذه الحرب ، وجمعوا اطفالاً لا حصر لهم ، وقاموا بخصيهم ، وقد مات الآلاف منهم من جراء هذه العمليات الوحشية ، ومَنْ بقى منهم على قيد الحياة ، كانوا يرسلون بهم إلى اسبانيا حيث يباعوا للعظماء ، والأثرياء بثمن باهظ . ثم رويدًا ، رويدًا راحت عمليات تبادلهم كهدايا مثل الخيول أو أدوات الصيد وما شابه ذلك .. .

فمثلا كان حكام الفرنجه لكى يداهنوا الحكام العرب المسلمين فى الأندلس كانوا يبعثون لهم مجموعة من الطواشية ضمن الهدايا التى يبعثون بها إليهم . فعندما أراد حاكم برشلونه ، وطارغونه تجديد الصلح مع الخليفة المستنصر فى الأندلس فقد أرسلا له عشرين طواشيا من آطفال السلاو ، وعشرين قنطارًا من الفراء الثمين ، وكان الخلفاء يشكلون منهم فرقًا خاصة لخدمتهم والعناية بأمور القصر والخدمة داخله . وكانت طوابير الطواشية تحتل مكانها بين الطوابير الأخرى فى الاحتفال بالجلوس على العرش ، أو تعين وليًا للعهد أو سائر المناسبات الأخرى .

كان أكثر الطواشية الذين جلبوا إلي العالم الإسلامى يُحضرن من الأندلس حيث تتم عملية الخصى فى الأماكن القريبة منها . أو من ناحية جوراسان حيث كان بعض تجارها يشترون العبيد من بلاد السلاو ويقولان بهذه العملية لهم، ثم يبيعونهم .

ولابد من الاشارة أيضًا . إلى أنهم كانوا يتدخلون فى شئوون الحكم والإدارة لما يملكونه من نفوذ بسبب حساسية الاماكن التى كانوا يخدمون فيها .

كما يُقال أن بعض المتعصبين المسيحيين كانوا يقومون باجراء هذه العمليات لأنفسهم لقتل الرغبة الجنسية ، والشهوة فى داخلهم ولكى يوقفوا حياتهم للحياة الآخروية .. ومن أشهر هؤلاء اوريجان "Origen" الاسكندرانى وكان عالمًا كبيرًا فى العقائد المسيحية . بل شهدت العصور الوسطى بعض من المذاهب الدينية المسيحية التى كانت تقوم بهذه العمليات لوقف حياتهم على العبادة فقط . وكان لهم صوتهم المسموع فى ايطاليا .

أما فى الدولةالعثمانية ، فقد كان هناك الآغوات البيض = أى الطواشية الذين يجلبون من البلدان الأوروبية ، ويطلق عليهم آ ق آغا = الآغا الأبيض ، أما الطواشيةالسود ، فقد كان يطلق عليهم « خادم آغا » أى الاغا الخادم . وكانوا يجلبون من الحبشة أو من افريقيا عامة .

كان مراد الثانى هو أول من استخدم الطواشية البيض للخدمة فى السراى . قاموا بالخدمة فى أول الأمر ، =

نقـوده علنًا ، فلربما أصـابوه بمكروه ، وقـد يصل الأمـر إلى مـا هـو أخطر ، وأهـم من النقـود ، حيث أن أهل المدينة جـميعًا ، أغنياءهم وفقراءهم ينتظرون مقدم الحجيج سنويًا ؛ ومـهـما بلغت الصـدقات ، ومـهـما بذل الإنسان في سـبيـلها فهى فى محلها ، ولها ثوابها ، ولكن من الأفضل ، والواجب ، أن تكون سرًا .

الروضـة المطهـرة من الداخـل :

لقـد تيـسر لى أنا العبـد الفـقيـر إلى ربه الدخـول إلـى داخل الروضـة المطهـرة مع ولى النعـمة حسين باشا .

ولقـد ارتدينا ملابس طاهرة ، نظيـفـة ، حـلالاً ، وكنا نردد فى خـشـوع وبهـجـة ، الصلوات الطيـبات على فخر الكائنات . وقـد أقبل شيخ الحرم ، وفى معيتـه ثنتا عشر طواشيًا ، وهـم يحـملون المباخـر ، ومراود الطيب ، واصطفوا أمام المقصورة النبوية .

= ثم رويدًا رويدًا بدأوا يكلفون بأعـمـال ادارية داخل السـراى ، وفى أجنحة الحريم .. وقـد وصل البعض من هؤلاء الخدم البيض إلى الوزارة ، والصدارة العظمى ..

أما الطواشية الزنوج فقد كانوا فى أدنى المراتب فى الخدمة ، وكان يُطلق عليهم (الأدنى) . وكان الخادم الجديد يمثل فى بادئ الأمر بين يدىْ آغا دار السعادة « أى بين يدى خادم العتبة السلطانية . ثم يُسلم إلى « مربى الأوضة = اوضه لاله س » ، وبعدها بصبح من الخواص . ثم يُرسل أقدمهم تباعًا إلى « الأغا غلام الباب الرئيسى » لقيده فى سجلات السراى . وكان جميع هؤلاء من الطواشية أى من الخصيان ثم يُربون على الطاعة ، والخضوع وأول دروسهم تقبيل اليد ممن هم أقدم منهم من المربيين ، وهم أيضًا من الطواشية . وكان يُطلق على الحديث منهم الآغا الآعجمى « أى الذى لا يعرف شيئًا بعد .

وكان خـمسـة منهم يمسكون نوبة الخدمة على باب الحريم فى السراى السلطانى ، أو على باب الحريم فى أى قصر . ويطلق علي أقدمهم « قلفة النوبة » . وكان آغا عتبة السعادة هو الذى يسلمهم المفاتيح ويتسلمها منهم عند تجديد النوبة .

يتلو فى المرتبة « الأوسط » ؛ وهم بدورهم أربع درجات ، أقدمهم يتولى تنظيم النوبتجيات ، النوبات أمام الأبواب ، ويشرف عليهم ، رهم المسئولون عن فتح وغلق الأبواب .. ثم يتدرج الأقدام فيعيَّن غلامًا على الباب الرئيسى ، ويصل إلي أن يكون هو المسئول عن بوابة السراى الرئيسية . ثم يحظى صاحب الحظ الوفير منهم على لقب « آغا عتبة السعادة » . وهذه أعلى منزلة فى السراى السلطانى .

وفى سنة ١١٢٧ هـ = ١٧١٥ م لما تولى داماد على باشا والى مصر الصدارة فى عصر السلطان أحمد الثالث ، أصدر أوامره بإلغاء نظام الطواشة لكى يتخلص من لقب الطواشى الذى كان يلازمه خاصة وأن الطواشية الزنوج أى السود كانوا يجلبون من السودان إلي مصر ، ومنها إلى بقية ولايات الإمبراطورية . بعد أن يتم خصيهم فى مصر .

بالرغم من هذا المنع ، إلا أن هذا لم يمنع الدولة العثمانية ، وإن كان بشكل أقل .

وكان آغا دار السعادة أى آغا عتبة السعادة عند تغيير السلطان ، أو كِبَر سن الآغا يبعث به للعمل والخدمة فى الحرمين الشريفين . « المترجم »

وقام شيخ الحرم بلف حسين باشا بفوطة بيضاء ، ثم سلّمه مكنسة ، وكنا - والعبد الفقير - سبعة أشخاص ، وكل منامعه مكنسته . وناب شيخ الحرم عن السلطان ، وأخذ هو الآخر مكنسة فى يده . وفُتح باب المقصورة ، ودخل الإثنى عشر طواشيًا ، ثم أغلقوا الباب ، ولم يُسمع لأى إنسان آخر ، بالولوج إلى الداخل .

وكانوا يرددون عند دخولهم « دستور يا بنت رسول الله » أي الإذن يا بنت رسول الله حيث أنه لابد من المرور من جوارها ، عند التوجه إلى مقصورة النبي الكريم .

قَبَّل الباشا [1] ، والعبد الحقير ، الأرض بين يدي خير الكائنات طالبين الشفاعة . ثم بدأنا فى تنظيف المكان . وكان مجموع الذين فى داخل المقصورة قد أصبح خمسة عشر فردًا . ولكني أنا العبد الفقير ، فقد فقدت وعي ، وجاشت روحى من العشق والجوى ، وكنت كلما عدت إلي نفسي ، ووعيت ما حولى ، عدت إلى التوسل بشفاعة الحبيب المصطفى . ثم أشعلت ثلاثة قناديل . وفى وسط القبة الطاهرة ، تمامًا ، تتدلى ناموسية « كله » رقيقة ، لم تر عيناي ، لها ، مثيلاً ، فى طول الأرض ، وعرضها سواء من ناحية الإبداع ، فى الصنع أو القيمة . ولا يُسمح قط بدخول أي أحد تحتها ، حيث أن جسد الحبيب المصطفى مسجى فى صندوق مغطى بجزء من غطاء الكعبة الشريفة الأخضر .

فى هذا المكان الطاهر ، من المجوهرات ، والشمعدانات الذهبية والقناديل ، المرصَّعة ، ما لا عين رأت ، ولا خطر على عقل بشر ، ولا يعرف حصرها أو قيمتها سوى الله سبحانه وتعالى .

ويدخل المسئولون ، والخدم ، هكذا مرة واحدة كل عام ، ليزيلوا ما قد يكون قد علق بهذه التحف النادرة من غبار .

وسيدنا أبى بكر ، وعمر ، راقدان هنا تحت القبة أيضًا . أما السيدة فاطمة ، فهى

---

(١) الباشا : Pacha = Pasa لقب كان يُمنح لكبار الموظفين فى الدولة العثمانية ؛ سواء من المدنيين أو العسكريين ، ويقول هامر ؛ إنها تدل على الشخص الذى ينيبه السلطان فى إدارة أمر ما ، أو القيام بمهمة محددة . على اعتبار ان السلطان يعتبر موظف فى الدولة بمثابة قدمه الراسخ فى انحاء البلاد . وكان السلطان يحب تشبيه موظفيه ببعض أعضاء جسده؛ فالموظفون الكبار عينيه ، ورجال الشرطة اذنيه ، ورجال المالية يديه ، والجنود قدميه .. وكان هذا اللقب يمنح لبعض العلماء والفنيين تعظيمًا لهم ، وتقديرًا لدورهم . وفى بعض فترات التاريخ العثمانى تم وقف هذا اللقب على الوزراء ، والصدر الأعظم فقط . « المترجم »

خارج القبة . وبين الكلّة المسدولة ، والمقصورة الخارجية ثلاث خطوات ، وقد رُصّع هذا المكان بأثمن الأحجار ، الكريمة ، كالعقيق ، والفيروز ، والزبرجد ، والكرستال ، والبلور ، والثريات ، ولذلك لم يفرش هذا المكان بالسجاد ، أو ما شابه ذلك ، أما الكرات الذهبية ، والمجوهرات ، والقناديل المعلقة ، داخل القبة ، من ذلك النوع الذى لا مثيل له ، ولم يخطر على عقل بشر ، ومن يراها يفقد وعيه ، وإدراكه . لم يكن فى القبة مكان خالٍ ، بل لقد علقوا هذه التحف النادرة ، فى سلاسل ، متدلية ، من زوايا القبة . ويمتلئ المكان بالشمعدانات الذهبيه الخالصه التى تصل أطوالها قامة الرجل أما الغطاء المسدول أمام الرسول الكريم ، فقد ثبت فيه قطعتين من الماس ؛ إحداهما سبعون قيراطًا ، ويعلم الله أننى نظرت إليها ليلاً فإذا القبة قد أُنيرت من أشعتها وضياءها . بل يردد البعض ، أن بعض الدارسين يقرأوون على نورها .

يصل ارتفاع القبة خمسين زراعًا ، وقد نُقشت على أطرافها الآية الكريمة ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ (١) .

وهكذا بعد أن تمت الزيارة ، استأذنت خارجًا .

وفوق المقصورة نُقشت الآية الكريمة ﴿ **الذين يتبعون النبى الأمي الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوارت والإنجيل** ﴾ .

كما توجد لوحة معلقة مكتوب عليها ﴿ **وكفى بأولئك شهيدا** ﴾ . هذا وقد كتبت أنا – العبد الفقير – بالقدر الذى سمحت به قدراتى . ولم أنس قط ؛ أننى قد كنت ، وأنا فى سن الخمسين ، وأنا فى شبابى – قد قمت بالآذان فى رؤياى ، وأنا فى الحضرة النبوية ، وقبلت يديه الكريمتين « ﷺ » وبشرنى عليه السلام قائلاً متفضلاً : « الشفاعة ... الزيارة ... السياحة .. الفاتحة .. » ،حمداً وشكراً لله فقد تحققت بشرة الحبيب هذه السنة .

ومنذ أن خرجنا ، من خيامنا ، فى قلعة مزيرب ، بالشام ، وحتى الآن قد انقضى سبعة عشر يومًا ، أو كادت . وخلال هذه المده ختمنا القرآن سبع مرات ؛ وإن كنت قد تركت فى إحداها و « والضحى » وفى الآخرى « يسين » وفى بعض « الإخلاص » فقد يسر الله لى إتمامها جميعًا هنا ، والحمد لله ، وقد أهديت ثوابها جميعًا إلى روح

---

(١) سورة النور آية ٣٥ .

الشفيع المشفع ، وسألته عليه السلام الشفاعة . هذا وقد يسر الله لى إتمام الختم الشريف ، عند صلاة الظهر ، في محفل المؤذنين . وقد شرح الله صدرى ، وفتح عليَ ، بدعاء من البحر الطويل ، وما أن رددته ، ورده الجمع ، الغفير ، من الحجيج ، الملتفين حولى ؛ حتى إغرورقت أعيننا جميعًا بالدموع ، وبهرتهم الدهشة .

هنا تمت كل مناسك زيارة الحرم النبوي الشريف

* * *